من ظرفاء العصر العباسي :

أبو دلامة

توفي سنة ١٦١ هـ

للأستاذ صبحي إبراهيم الصالح

— ٦ —

وأبو دلامة — مزحه وهزله — كان يلتزم مع الهدى الجد ، فيسري عنه بنير السعابة إذا وجد الموقف يستدعي الوقار : وما ذاك من هذا الظريف إلا دليل جديد على حسن تفهمه لنفسية الخليفة ومهارته في استخدام الأساليب المرضية له حسب الظروف والمناسبات :

كان عند المهدى رجل من بني مروان ، فدخل إليه وسلم عليه . فأتى المهدى بعلج[1] فأمر الرواني بضرب عنقه ، فأخذ السيف وقام فضربه فنبا السيف عنه ، فرمى به الرواني وقال : لو كان من سيوفنا ما نبا . فسمع المهدى الكلام فغاظه حتى تغير لونه وبان فيه . فقام بقطين[2] فأخذ السيف وحسر عن ذراعيه ثم ضرب العلج فرمى برأسه ، ثم قال : يا أمير المؤمنين ، إن هذه سيوف الطاعة لا تعمل إلا في أيدي الأولياء ، ولا تعمل في أيدي أهل المعصية . ثم قام أبو دلامة فقال : يا أمير المؤمنين ، قد حضرني بيتان أفأقولهما ؟ قال : قل . فأنشده .

أيهذا الإمام سيفك ماض ... وبكف الولي غير كهام[3]

فإذا ما نبا بكف علينا ... أنها كف مبغض للإمام

فسرى عن المهدى وقام من مجلسه ، وأمر حجابه بقتل الرواني فقتل .

وهذه المواقف التي كان يقفها أبو دلامة جاداً على هزله ، وقوراً على مزحه ، حببت نصرانه إلى المهدى فرضي عنه ودنّاه

(١) العلج : الرجل من الكفار السمين .

(٢) هو بقطين بن موسى البغدادي .

(٣) الكهام من السيوف الكليل الذي لا يقطع

٢٠ ، ٣٣

مثل أبيه أو أكثر : فإذا كان المنصور قد أعفاه من صلاة الجماعة بالقصر ومن لبس السواد والقلانس دون الناس وأخرجه من حبس الدجاج رغم سكره — فإن الخليفة المهدى عجل جائزة كان قد أمر له بها حين كتب إليه رقعته يشكو فيها أذى الحر والسموم ، وهي :

أدعوك بالرحم التي هي جمت ... في القرب بين قريبنا والأبعد

ألا سمعت دعوات أكرم من مشى ... من منشد يرجو جزاء المنشد

جاء الصيام فسمته متعبداً ... أرجو رجاء الصائم المتعبد

ولقيت من أمر الصيام وحره ... أمرين قيسا بالعذاب المؤصد[1]

وسجدت حتى جبهتي مشجوجة ... مما يناطحني الحصا في المسجد

فامنن بتسريحي بعطك بالذي ... أسلفتنيه من البلاء الرصد

فلما قرأ المهدى رقعته غضب وقال : يا ماص كذا من أمه أي قرابة بيني وبينك ؟ قال : رحم آدم وحواء ، أنسيتهما يا أمير المؤمنين ؟ فضحك وقال : لا والله ما نسيتهما . وأمر بتجهيل ما أجازه به وزاد فيه[2] .

ففهم من القصة أنه لولا شديد عطف المهدى على أبي دلامة لما أحسن جزاءه رغم شكواه من الصوم ، وفهم منها أن أبا دلامة كان رقيق الدين ، فهو يلقى من أمر الصيام وحره أمرين لا يبيحهما إلا العذاب المطبق ، وهو يتضجر من كثرة ما سجد حتى ليدعي أن جبهته قد شجت مما يؤثر فيها من الحصى المنتثر في أرض المسجد : وما كان ليتزف بهذا مظهراً ضجره وملاله لولا رقة دينه ، وضعف يقينه .

وكيف لا يكون رقيق الدين ضعيف اليقين وهو مدمن على شرب الخمر لا يكاد يصل إلى شيء من المال حتى يسكر به . وكثيراً ما كان يعطى المال ليقوم بفريضة دينية يستغفر بها من ماضيه ، ويصلح بها حاضره ، فلا ينثره إلا في المعصية التي أحاطت به ورانت على قلبه واستحوذت على فؤاده !

عزم موسى بن داود بن علي الهاشمي[3] على الحج . فقال لأبي

(١) المؤصد : المطبق .

(٢) الأغاني ج ١٠ ص ٢٥٤ .

(٣) هو ابن عم السفاح ، كان أبوه داود أمير مكة والمدينة ، واستخلف حين احتضر على عمله وقد موسى . فاستعمله السفاح خاله زياداً على مكة ، وموسى بن داود هذا على امرة المدينة .

دلامة : أحجج عني ولك عشرة آلاف درهم . فقال هانها ؛ فدفعت إليه ، فأخذها وذهب إلى السواد فجعل ينفقها هناك ويشرب بها الخمر . فطلبه موسى فلم يقدر عليه ، وخشي فوت الحج فخرج . فلما شارف القادسية إذا هو بأبي دلامة خارجاً من قرية إلى أخرى وهو سكران ، فأمر بأخذه وتقييده وطرحه في محمل بين يديه ففعل ذلك به . فلما سار غير بعيد أقبل على موسى وناداه :

يا أيها الناس قولوا أجمعون معاً ... صلى الإله على موسى بن داود
كأن ديباجتي خديه من ذهب ... إذا لك في أثوابه السود
إني أعوذ بداود وأعظمه ... من أن أكلف محجاباً ابن داود
خبرت أن طريق الحج معطشة ... من الشراب وما شربي بتصريد[1]

والله ما في من أجر فطلبه ... ولا الثناء على دنيا بمحمود

فقال موسى : ألقوه لسنه الله عن المحمل ودعوه ينصرف ، فألقي وعاد إلى قصفه بالسواد ، حتى نفدت العشرة آلاف درهم[2] .

ولا ريب أن أبا دلامة لم يكذب في وصف نفسه ، فما فيه أجر فيطلبه أحد ، وليس الثناء على دينه بمحمود ، فعلام يكلف بالحج وسواه من الفروض ؟

لذلك قال صاحب الأغاني في وصفه : « كان فاسد الدين ، ردي المذهب ، مرتكباً المحارم ، مضيعاً للفروض ، مجاهراً بذلك . وكان يعلم هذا منه ويعرف به ، فيتجافى عنه للطف محله »[3]

وهو — لفساد دينه — لم يكن يكتفي بشرب الخمر والعربدة ، وإنما كان يقضي أكثر أوقاته في أسواق النخاسين الذين يبيعون الرقيق ، ليستمتع برؤية الجواري الحسان . وكان كثير الزيارة للجنيد النخاس ، إذ كان يتعشق جارية له وبيضه ، فجاءه يوماً فقال : أخرج لي فلانة . فقال : إلى متى تخرج إليك ولست بمشتر ! قال : فإن لم أكن مشترياً فإني أخ يمدح ويطرى . قال : ما أنا بمخرجها إليك أو تقول فيها شعراً . قال : فاحلف بمنقها أن تريها إياي وتأمرها بإنشاده من أتاك يسترضيها ولا تحجبها . فحلف لا يحجبها .

فقال أبو دلامة :

إن لأحسب أن سأمسي ميتاً ... أو سوف أصبح ثم لا أمسي
من حب جارية الجنيد وبغضه ... وكلاهما قاض على نفسي
فكلاهما يشقى به سقمي ... فإذا تكلم عادل نكسي[1]

فما قولك بهذا الشيخ الذي لم يمنعه العجز والكبر من خروج الجواري الحسان إليه ليملأ عينيه من جمالهن الجذاب ، وسحرهن الخلاب ؟

وإنك لترى صورة من أخلاق أبي دلامة في سلكه مع الناس ومعاملته لهم — ولا سيما العاديين منهم — فهو يقسم كاذباً ، وهو يلفق الأحلام ، وهو لا يبالي بأية وسيلة يصل إلى مبتغاه : مر أبو دلامة بنهار (بالكوفة) فقال له :

رأيتك أطعمتني في المنام ... قوامر[2] من تمر البارحة
فأم العيال وصبيانها ... إلى الباب أعينهم طامحه !

فأعطاه جلتي[3] تمر وقال له : إن رأيت هذه الرؤيا ثانية لم يصح تفسيرها . فأخذها وانصرف[4] .

وللنهار الحق في ألا يصدق منامه مرة ثانية ، فإنه مستعد للتحلم وتلفيق الرؤى في كل يوم ما دام يأخذ جلات التمر وقواصره ، ومستعد للكذب أمام كل مخلوق ما دام ينتظر من ورائه منفعة ، لأنه كان نفعياً بكل ما في الكلمة من معنى ، ولم يكن يخجل من التماس المنفعة والسعد إليها حتى مع الذين لا ينتظرون أن يخدعهم ولو خدع الناس جميعاً .

دخل أبو دلامة على إسحاق الأزرق يعوده ، وكان إسحاق قد مرض مرضاً شديداً ، ثم تماثل منه وأفاق ، فكان من ذلك ضعيفاً ، وعند إسحاق طبيب يصف له أدوية تقوي بدنه . فقال أبو دلامة للطبيب : يا ابن الكافرة ! أتصف الأدوية لرجل أضعفه المرض ! ما أردت والله إلا قتله . ثم التفت إلى إسحاق فقال :

---

(١) صرد شربه : قطعه .

(٢) الأغاني ج ١٠ ص ٢٤٦ وقوله (العشرة آلاف درهم) لغة ضعيفة ، وإنما أتيتنا نقلا عن الأصل ، وأفصح اللغات : عشرة الآلاف درهم

(٣) الأغاني ج ١٠ ص ٢٣٥

(١) الأغاني ج ١٠ ص ٢٦٩

(٢) القوامر : واحدها قومرة ، وهي وعاء من قصب يرفع فيه التمر من البوادي

(٣) الجلة (بالضم) قفة كبيرة للتمر

(٤) الأغاني ج ١٠ ص ٢٥٢